الحِصَـــار

(١)

في المغيب، كانت الشمس تسقط حمراء في البحر، حادة وصريحة، تتلون ببريق ذهبي قاتم فاقع، الدنيا في ساعاتها الأخيرة كانت، وصمت أرستقراطي مهيب علي هذا الحي الراقي، وكل ما يُسمع من أصوات إنما كان يأتي من العصافير والبوابين الضخام السود، الطيبين الجالسين علي الأرائك يحرسون الفيلات والقصور، يرتدون الجلاليب البيضاء، الواسعة، ويحملون عمامات كبيرة فوق الرؤوس، وفي تلك البناية العملاقة، الواقعة بهذا الحي، تحركت فيها مطابع الجريدة، كانت تسارع الزمن، الصوت مرتفع ليس لحد الضجيج، تتحرك عشرات الأعداد تلو الأخرى علي السير الصاعد لأعلي، ورئيس التحرير بجسده اللحيم يقف بين فسحات الماكينات الهادرة، يراقب العمل الدؤوب، سحنة وجهه تحمل كماً كبيراً من الرضا، أخذ يحادث الواقف بجواره، يبدو أنه مسؤول الإخراج الفني ، راح يربت علي كتفه، وبصوت تخالطه التحية والتقدير لكل فريق العمل، هز الأخير رأسه عدة مرات مبتسماً، ثم أشار رئيس التحرير بإصبعه الضخم إلي خبر بارز به فنيات عالية، ورقي صنعة، كان الخبرُ يتقدم الصفحة الأولي، بنط الخط كبير، كان واضحاً تماماً..(فيلم عربي، يفوز بجائزة عالمية).

(٢)

في اليوم الأول لعرض الفيلم العربي الفائز، ازدحمت السينما ازدحاماً تاريخياً، غير مسبوق، واختلطت الأصوات بين المتلهف، والمترقب، والمبتهج بفوزه أيضاً في المحافل الدولية، وبعد قليل-بداخل دار العرض- أطفئت الأنوار، وهدأت الأصوات، وجاء من الخلف -عالياً بميلٍ- حزمة كبيرة من الضوء صادرة من غرفة تشغيل دار العرض، فهدأت الأصوات تماماً، كان الضوء يملأ شاشة العرض، بلونٍ أقرب للأزرق القاتم، وساعة رقمية مستطيلة، كبيرة إليكترونية، واضحة المعالم، تتوسط الجزء الأعلى من الشاشة، وكُتب بمنتصف الشاشة كلمات بخط أبيض عريض:« القصة من الواقع، البطولة لشخص واحد، التصوير والإخراج لمخرج غير معروف»، غمغمت بعض الأصوات لكنها لم تهيمن علي الجمع الغفير بشئ يُذكر، ثم تغيرت الشاشة للون الرمادي الغامق، كانت الصورة أقرب للثبات، ومن لحظة لأخري تتحرك ولكن في نفس اللون، وكأنها تسبح في نفس الفَلك، مع تغير طفيف، فظهر جزء غير واضح المعالم كلية من (كمرة خرسانية) في الدقيقة الثانية من الفيلم، الحركة تهتز لكن البطء يخيم عليها، وفي الدقيقة الخامسة تري جناحاً وحيداً، غير متحرك لمروحة سقف، ثم تعود الصورة للثبات مرة أخري، وفي نهاية الدقيقة الخامسة، تتكور اللحظات، ملقية ظلالها علي شعور حارق وغريب، عندما بدأت الساعة الرقمية تزحف لمنتصف الدقيقة السادسة من الفيلم، تحركت الصورة أكثر، المشهد يتجه لأسفل بدفع السرعة، ثم يعود للبطء مرة أخري أثناء نزوله علي حائط باهت الطلاء، شباك صغير مفتوح الضلف الخشبية، يرقب الشارع المُحْمِر، وضلفة زجاجية مواربة والأخري غير موجودة، ثم يصطدم المشهد أثناء نزوله -أيضاً- بمنضدة صغير بقرصة خشبية دائرية عليها زحامٍ من عبوات الأدوية الزجاجية القائمة والنائمة، وعلب ورقية لأقراصٍ من البرشام لأنواعٍ عدة، وقطرات عين، وجهاز محاليل مستعمل معلق بمسمار علي نفس الحائط علي اليمين قليلاً، الدقيقة السابعة تبدأ لتنتهي إلي سرير حديدي صغير، لفردٍ واحدٍ، لم تظهر ملامحه بوضوح أكثر، وهنا بدأت همهمة أحد المتفرجين من تلك الرتابة التي يعيشها المشهد، الأعناق المشرئبة تعبت من التوائها ، فصرخ أحد الجالسين متبرماً واقفاً، مشوحاً بيده:

* يووووووووووه..ما هذا الملل؟!

متفرج آخر، يتبرم أكثر، يصنع حركة غير لائقة بإصبعه الوسطي:
* لقد تركنا بيوتنا المملة، ودفعنا ثمناً باهظاً في تذكرة الفيلم، لنعش مللاً أكثر، والله بيوتنا أرحم..!!
وعند بداية الدقيقة التاسعة يقترب المشهد أكثر علي السرير، الرابض في منتصف الغرفة، ترقد فوقه سيدة عجوز في العقد التاسع من عمرها، مطروحة، ممددة، ترتدي أسمالاً سوداء، نظيفة، رقبتها-الأقرب للطول تتلفح بطرحة سوداء- كانت ثابتة، لا تتحرك يمنة ولا يسرة، كما كان بصرها معلقاً بسقف الغرفة، تتحرك عيناها في تعب، يسيطر البياض عليهما، يصدر عنها كلمات قليلة، يرتعش فمها الملموم علي أطلال أسنانٍ، تختلط بهمهمة، وبكاء، وتضرع لله -عز وجل-، تهتز يداها المعروقتان؛ لتكمل المشهد في صمت، ويرتفع الكادر التصويري لأعلي ببطء ليصل للسقف مرة أخري، فيعود المشهد(فلاش باك) للدقائق الأول من الفيلم لكنه أسرع من ذي قبل، كانت القاعة قد أصابها الصمت المطبق، ثم نزلت كلمة «النهاية» تتوسط الشاشة، وهنا، أشارت الساعة الرقمية لنهاية الدقيقة العاشرة، ثم صدر صوت جهوري من سماعات القاعة، الصوت ملأ الأجواء، وهيمن علي المكان، ونزل الصمت الأخرس علي الجميع:
* لحظة واحدة أيها المشاهد الكريم، الفيلم الذي تم عرضه عليكم لم يكن فيلماً بالمعني المتعارف عليه، بل كان جزءاً يسيراً من المشهد الرئيسي الدائم لحياة مُسنة كفيفة، وقد تبرم الأصحاء من عشر دقائق من حياة هذا المناضلة المنسية.. رغم أن ذلك سيغربل مشاعرك، ويطرد من داخلك القلق والعنف والكراهية، ليستقر بك علي شاطئ نظيف، مغسولاً متطهراً، شكراً جزيلاً علي وقتكم الثمين.. تواجدكم أسعدنا..ثم أضيئت القاعة..تماماً..

(٣)

في ثـــوانٍ انـــداح اليـــأس من نفوس الجالسين، بعد لحظات، هتف المتفرجون جميعاً: لإعادة الفيلم مرة ثانية، وأطفئت الأنوار، وعاد الضوء مرة أخري من غرفة التشغيل، وبدأت الساعة الرقمية للعد من جديد، وعند الدقيقة العاشرة، امتلأت القاعة بالتصفيق الحار الذي استمر عشرين دقيقة...!!